# العربية لغة القرآن والإسلام

## بقاء العالم الإسلامي وحدة ثقافية رهن بسيادة اللغة العربية الفصحى على اللهجات العامية

للدكتور محمد يوسف

استاذ اللغة العربية بجامعة كراتشى ( الباكستان )

يسرنى ويسعدنى ان البى دعوة المكتب الدائم لتنسيق التعريب الى ابداء رايي فى موضوع العلاقة بين الاسلام واللغة العربية . والمكتب ، الذى اتابع سير اعماله باهتمام بالغ منذ تشريف السيد عبد العزيز بنعبد الله لنا بزيارته فى عام 1966 ، يستحق كل تقدير وشكر على اختياره هذا الموضوع بالذات للاستفتاء ، فان له **اهمية خاصة فى الآونة الحاضرة ولاسيما بالنسبة الى البلاد الاسلامية** غير العربية مثل الباكستان التى اعنى بشؤون اللغة العربية فيها ، هذا وانا استبشر بنظرة المكتب هذه الى ما وراء « العالم العربى » عسى ان تكون باكورة عمل جدى لاعادة العالم الاسلامى وحدة ثقافية كما كان الى ما قبل عهد الاستعمار الاوربى البغيض ، الذى اشتدت وطأته علينا فى كثير من نواحى التعليم والتربية بعد الجلاء العسكرى .

وبعد . فالتاريخ خير شاهد على انه لولا الاسلام لما تأتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم ، بل اقول لما تأتى لها ان تبقى حية ناعمة مزدهرة كما هي بدون ان يخنى عليها ما اخنى على لبد ( اى اللغات القديمة كالسنسكرتية واليونانية واللاتينية) . فمن نافلة القول **انه لم يجمع شمل العرب** ولم يؤلف بين قلوبهم ولم يمكنهم من انشاء دولة ذات شوكة لهم وبسط نفوذهم داخل الجزيرة العربية وخارجها **الا الاسلام** ، وحتى لو اتفق لهم ان يتحمسوا لقوميتهم ويتعصبوا لجنسهم ووطنهم ثم يندفعوا بدافع الحمية الجاهلية لقهر جيرانهم من الفرس والروم والقبط والبربر والزنج والقوط لما وسعهم اجبار تلك الامم الاعجمية على التخلى عن لغاتها والاخذ بلغة العرب فى دورها واسواقها ومعابدها ومدارسها ودواوينها بل التعرب فى تفكيرها وميولها وعواطفها وآدابها وفنونها وكثير من عوائدها ــ كفى عبرة بما قاسيناه وشاهدناه من امر المستعمرين والامبرياليين فى العصر الحاضر : هجموا على كثير من بقاع الارض وغلبوا اناسا من مختلف الاجناس والاديان بالقوة المادية والاسلحة الحديثة الا انهم لم ينجحوا فى محاولتهم السافرة الوقحة للقضاء على اللغات المحلية واحلال لغتهم ــ لغة الحاكمين المتغلبين ــ مكانها فى الحياة العامة، وقصارى الامر انهم كونوا بجميع وسائل الترغيب والترهيب طبقة خاصة من عملائها واجرائها تثقفوا ثقافة اجنبية فى جهالة عمياء عن مقومات شخصيتهم وثقافتهم الاصيلة مع عزلة عاطفية وقطيعة جافة متغطرسة من بيئتهم الوطنية الطبيعية والدينية الخلقية . ولكن هذه الطبقة نفسها ــ مع انها لا تزال ضئيلة العدد بالنسبة الى مجموع عدد المواطنين ــ انما تتصنع وتتكلف اللغة الاجنبية فى وسطها الراقى لاغراض ومناسبات معينة ، اذن لا يملك الدهشة كل من يتتبع كيفية انتشار اللغة العربية من العراق الى الاندلس عبر التاريخ بعد الاسلام ولا يفوته ان يستخلص بسهولة ان **الاسلام هو الذى جلب الناس الى القرآن ولغة القرآن** حتى تعربوا عن طواعية وبدافع من انفسهم لا ادل على ذلك من ان **الاعاجم هم الذين** ساهموا بنصيب اوفر فى تدبير **وسائل تعلم اللغة العربية** من

النحو وعلم اللغة ، ولأؤكد مرة اخرى ان بقاء **اللغة العربية الفصحى على حالها فى المخاطبات والمكاتبات مدين للقرآن لا غير** ، فلولا ان سبقت كلمة ربنا « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » لتعرضت اللغة العربية لعوامل البلى والفساد والانقراض وتلاشت فى اللهجات العامية ــ تلك **اللهجات الدارجة التى نشأت ، لا عن التطور الطبيعي كما يتبجح بعض المغرورين منا ، بل عن التدهور غير الطبيعي** فى اوضاعنا العلمية والاجتماعية ، والتى تهدد كيان الأمة العربية وتمثل خطرا عظيما لجميع المؤمنين بالله وكتابه » ــ ما من شك ان **اللغة العربية الفصحى احدى المعجزات** ، لا نظير لها بين لغات العالم ، فهي حية نافقة على قدم عهدها بين اللغات القديمة الاخرى ماتت وتوارت فى بطون الاوراق ، وما من شك ايضا ان هذه المعجزة تمت بصلة عضوية الى اعجاز القرآن .

والى جانب الامم المتعربة، اى التى اطرحت بالمرة لغاتها الاصلية واتخذت من اللغة العربية لغة المخاطبة فى جميع حاجاتها اليومية ، لحقت بركب الاسلام امم اخرى مستعربة ، اعنى التى خصت اللغة العربية بعنايتها الفائقة كلغة القرآن والدين والثقافة والآداب والعلوم ، فكانت هي اللغة الوحيدة التى تدرس فى مدارسها وكانت جميع مواد التدريس تحضر بها ، فاحتلت مكان الصدارة فى مقومات الثقافة ، ومع انها لم تصبح لغة المخاطبة فى الحاجات اليومية الا انها كسحت ميدان العلم والادب كسحا بحيث لم تبق للغات المحلية سوى زاوية البيت ومحلات الاسواق حتى اذا نشأت اللغات المحلية وترعرعت بفضل بعض العوامل الطبيعية على مر الزمن وزحفت الى البلاطات والدواوين الحكومية وتسللت خائفة مذعورة معتذرة الى الادب والشعر لم تأمل قط فى الاستقلال الذاتى بل قنعت بالدوران فى فلك العربية والاخذ والاستفادة منها بالاستمرار لان العوام كانوا يبجلونها فوق كل لغة، والخواص لم يكن لهم غنى عنها فى كل ما يمت الى الدين والثقافة العامة العلمية والادبية بصلة . كفى شهادة على ذلك ما قاله البيرونى، احد الممثلين البارزين للاستعراب الآنف الذكر ، عن ولائه للغة العربية وتحرجه من اللغة التى الفها فى حضن امه ، يقول فى غير مواربة : « ان كل امة تستحلى لغتها التى الفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها ... وانا نفسى قد طبعت على لغة ( يريد لغته الاصلية الخوارزمية ) لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة فى الاكواب ، ثم انتقلت الى العربية والفارسية ، وانا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف ، **والهجو بالعربية احب الي من المدح بالفارسية** ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم نقل الى الفارسية كيف ذهب رونقه ، وكسف باله واسود وجهه، وزال الانتفاع به ، اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسمار الليلية . ( عن كتاب الجماهر في معرفة الجواهر )

**فابرز اللغات المستعربة ( على حد تعبيرنا ) الدائرة فى فلك العربية بقوة الاسلام الجاذبية المغناطيسية هى الفارسية ثم التركية والاردوية** ، وملامح الاستعراب البارزة للعيان هى :

**(ا) الخط العربى .**

**(ب) الاولية للغة العربية فى برامج التعليم والتربية**

**(ج) النسج على منوال الآداب العربية فى انشاء الآداب المحلية .** خذ مثلا اصناف الادب من المقامة والرسالة والشعر باوزانه وبحوره واقسامه من القصيدة والغزل، حتى انهم فى تدوين قواعد الفارسية والاردوية كما اعلم انهم حذوا حذو النحو العربى كلما وسعهم ذلك .

(د) نقل **الالفاظ الدينية والمصطلحات العلمية** والتعبيرات العلمية الدقيقة والادبية اللطيفة ، فضلا عن مناهج التفكير والتفاعل العاطفى مع الكون ووقائع الحياة وتطورات الذوق الفنى من **الآداب العربية** الى الآداب المحلية .

انما المهم ان **اللغة العربية ظلت محتفظة بمكان الصدارة** فى برامج التعليم والتربية فى ايران وتركيا والهند حتى بعد نشأة اللغات المحلية وآدابها ونقل بعض العلوم اليها لسهولة الكثرة الكاثرة من الجهال وانصاف المتعلمين ، لا لتمجيد اللغات المحلية واستغناء العلماء والمثقفين بها عن اللغة العربية ، فكلما كان محتما على الدارس ان يلم باللغة العربية ، قبل عنايته بالآداب المحلية كلما بقيت حركة النقل والرفد مستمرة قوية بينهما ، **فكانت اللغة العربية معينا لا ينضب** والآداب المحلية مستنقعا يرسب فيه ما فاض من المعين الاول من الألفاظ ومشتقاتها والمصطلحات والتعابير وقوالب الفكر والاخيلة والتيارات العلمية والادبية .

فبما ان حاجة المسلم الاولى للتدين والتثقف هى **درس القرآن باللغة العربية بقي العالم الاسلامي وحدة ثقافية** على الرغم من انقسامه الى دول ودويلات متعددة

ومعادية بعضها لبعض فى كثير من الاحيان ، لولا ذلك لما امكن لابن بطوطة ان يتقلد السفارة والقضاء فى الهند وجزائر مالديب من غير عسر او غرابة فى الامر . اذن يتضح لنا ان **بقاء العالم الاسلامى وحدة ثقافية انما هو رهن بسيادة اللغة العربية الفصحى على اللهجات العامية** فى البيئات العربية والمتعربة وعلى اللغات المحلية فى البلاد المستعربة .

لقد جرت الامور هذا المجرى الطبيعى طوال القرون الى ان ابتلينا بالاحتلال الغربى — انما نعنى فى هذا المقام بالجانب الثقافى منه — فانقلبت الاوضاع راسا على عقب ، ولنكتف بالقول فى **اهم النقاط التى كان لها تاثير قوي بعيد المدى فى مكانة اللغة العربية** وهى كما يلى :

(أ) وضع حد لتفرد اللغة العربية بعناية المسلمين فى برامجهم التعليمية والتربوية ، بل الغاؤها كمادة اساسية اولية حتى فى بعض مناطق العالم العربى ، واحلال اللغتين الانجليزية والفرنسية مكانها كلغة العلوم الحديثة والحضارة الجديدة ، ولسنا كالنعام ندس راسنا فى الرمال وننكر الواقع ، بل **نعترف بتخلف اللغة العربية عن ركب العلم والحضارة تبعا لتخلف المسلمين** سياسيا وعلميا بوجه عام ، وعلى ذلك كان الاهتمام باللغتين الغربيتين نعمة فى ثوب نقمة لو اننا وضعنا نصب اعيننا الاستفادة منها بقدر الضرورة للحاق بركب العلم والحضارة، الا اننا مع الاسف تورطنا فى المحاكاة والتقليد الاعمى واتخذنا من اللغتين بالذات سمة وشارة للتقدم وكانت النتيجة اننا بدانا نزدرى بماضينا ونستخف بتراثنا الاسلامى ونجمجم القول فى ترديد **اتهامات الغربيين للغة العربية والدين الاسلامى بانهما يعوقان عن التقدم المنشود فى العصر الحاضر**، وياليتنا اقتدينا باسلافنا الذين احرزوا كنوز العلم فى جميع لغات **العالم من اليونانية والفارسية والسنسكرتية حتى بلغوا** القمة فى اقصر وقت ، وياليتنا اعتبرنا بالتاريخ المعاصر للامة اليابانية والصينية كيف انهما تملكتا العلوم الغربية فى مدة لا تزيد على نصف قرن بينما نحن لا نزال مستدينين ومستقرضين نعلل انفسنا بالقشر دون اللب لا غير . على كل حال استغل الغرب تعطشنا الى الرقي العلمي والمادى لتضليلنا عن طريق دعايات مغرضة هدامة، من **اهمها الدعاية الى القومية بدل «الاسلامية» مستلزمة استبدال اللهجات العامية واللغات المحلية بالعربية الفصحى .**

(ب) لم يبق الآن مجال للشك فى ان **النظرية القومية من مستحدثات الغرب لا غير ، وانها تخالف النزعة الاسلامية** على طول الخط ، كما يشهد بذلك المؤرخون الغربيون والمستشرقون انفسهم (1) . وكان من آثار هذه النظرية المشئومة فى البيئة العربية والمتعربة ان بدات اللهجات العامية تزاحم وتطغى على العربية الفصحى بدعوى ان الاولى طبيعية بالنسبة للولد من حيث انه يتعلمها فى حضن امه ويستعملها عن سليقة فى حين يكتسب الاخيرة بجهد شاق فى المدرسة ولا يزال يصطنعها ويتكلفها طول حياته عن قصد وروية لا لشىء الا لانها لغة القرآن ! كادت هذه الدعاية تلقى نجاحا ورواجا لولا ان تداركها الله بصورة لم تكن فى الحسبان ، فان العرب الذين اعتنقوا النظرية القومية لمشاكلة الغرب ومقاومته بسلاحه سرعان ما وجدوا القومية الاقليمية ضئيلة تافهة ناقصة العدد والعدة فتطلعوا الى القومية العربية الكبرى مكاثرين ومباهين بها الامم ، ولما افتقدوا اسا ثابتا مطردا للقومية العربية غير اللغة العربية الفصحى تنبهوا الى خطر اللهجات العامية عليها من حيث تقطيع اوصالهم فتمسكوا بالفصحى ابقاء على القومية لا اتقاء لها . على ان علاج القومية بالقومية انما يذكرنى بقول الشاعر :

وكاس شربت على لذة ... واخرى تداويت منها بها

كثيرا ما اتصفح التقارير مثل التى نشرت اخيرا فى مجلة «المعرفة» الدمشقية عن اعمال مؤتمرات الادباء العرب فلا اجد فيها كلمة ترمز الى اللغة العربية كلغة القرآن ولا يسعنى الا ان اقول : لن يصلح آخر هذه اللغة الا بما صلح به اولها . ولنتساءل : هل يسر العرب ان يطرد الخط والكلمات والآثار العربية من تركيا وايران لترجع الى وطنها القومى كجماعات المشردين ؟

(ج) ان نكبة اللغة العربية من جراء القومية الوطنية فى تركيا وايران ربما تفوق نكبة المسلمين بالاندلس من بعض النواحى فانها نكبة على لغة القرآن بايدى المسلمين . صحيح ان جميع المخططات للتطهير التى وضعت فى اول وهلة للقومية فى البلدين لم تنفذ لا لشىء الا لاستحالة ابعاد ما يجرى مجرى الدم فى العروق **ولكن الذى خسرته العربية ليس بالقليل .** على كل حال لا يرجى لها فى الظروف الراهنة الا الانكماش والتقلص والنقصان المحتوم لكل ما يتوقف

(1) مثلا (Gibb) فى كتابه (Modern Trends in Islam) طبعة 1947 ص 116 .

عن الزيادة ــ وهذا دليل آخر على ان **انتشار اللغة العربية مرتبط ارتباطا عضويا بانتشار الوعي الاسلامي الدينى** ــ اعنى **الوعي الذى يدعمه الدراسة العلمية الهادئة ، لا** الذى يهيجه ويستغله اعوان الثقافات الاجنبية عن طريق هتافات جوفاء صاخبة .

(د) اما فيما يتعلق بالباكستان خاصة فان **اللغة العربية ظلت اللغة الاساسية فى برامج التعليم والتربية** المحتوية على العلوم اللسانية العربية والعلوم الدينية والعلوم العقلية ، لم يزاحمها فى ذلك الوضع العلمى والدينى والتاريخى طوال القرون المتتالية لا اللغة الفارسية ولا اية لغة اخرى من اللغات المحلية ، فان اللغة الفارسية ، حتى فى عهد الحكام المغول الناطقين بها ، لم تصبح لها مكانة رسمية فى البرامج التعليمية ، انما كانت تدرس خارجها بطريق غير منتظمة ودائما على هامش العربية ، اما اللغات المحلية فكانت سمة الجهل والحرمان من الثقافة والعلم لا غير، حتى اللغة الاردوية التى استعملت فى بعض المناسبات الادبية منذ بضعة قرون لم تكن لها ان تدخل مدرسة فى عداد مواد التدريس او تستقل عن اللغتين العربية والفارسية اللتين كانت دوما تستمد بهاءها ورونقها منهما وتفتقر اليهما لجميع ضرورات العلم والثقافة ، اذن **لم يكن استعمال اللغة الاردوية فى بعض المناسبات الادبية الا كالاحماض** من قبل المثقفين ثقافة علمية عربية . ولكن انقلب الوضع انقلابا جذريا حينما لجأ الانجليز الى جميع وسائل الترغيب والترهيب لادخال نظام التعليم الانجليزى فى المستعمرات الهندية ، فكانت النتيجة ان **تبوأت الانجليزية مكان العربية** كلغة العلم والثقافة فى المدارس والجامعات الحكومية واضطرت العربية الى الخمول كسلطان مخلوع عن العرش فانزوت مع العلوم الدينية الاسلامية الى المكاتب والمدارس الحرة غير الحكومية التى سرعان ما فقدت تاثيرها فى المجرى العام لشؤون البلاد وادارتها ، هكذا سادت الانجليزية سيادة مطلقة قرنا كاملا واكثر ، ولم تكن سيادتها شرا خالصا لولا انها عملت ما هو ادهى وانكد ، فانها بذرت فى نفوس المسلمين والهندوس على السواء فكرة تمجيد لغة الام والتعلق بأهدابها تعلق الولد بامه وتقديس اللغات المحلية او على الاقل تقديمها على اللغات الاجنبية بما فيها العربية كأداة طبيعية للتزود من العلم والثقافة ايا كان نوعهما ، وبدات هذه الفكرة تنبت وتؤتى ثمارها فكان الخصام بين المسلمين والهندوس بشأن تعيين « لغة الام » و « لغة البلاد العامة » والقدر المحتمل من الكلمات العربية فيهما ، **فاعلن الهندوس رفضهم للكلمات العربية والخط العربى بصفة خاصة ،** اما المسلمون فانهم تصلبوا وصمدوا امام الحركة العدائية من قبل الهندوس الا انهم فى الحقيقة كانوا انفسهم قد قطعوا صلتهم العلمية والدراسية باللغة العربية منذ ان اقبلوا على الانجليزية، فبدأ بعضهم يجمجم باتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة الاردوية وبالغاء الفرق بين السين والصاد والزاى والذال مثلا فى الكتابة اسوة بعدم التمييز بين الحروف المتقاربة فى النطق العامى الهندى ، واخيرا لجأ معظمهم الى الدعاية لتبسيط وتيسير اللغة الاردوية وهم لم يعنوا بالتبسيط والتيسير غير الاقلال من الكلمات العربية والاكثار من الكلمات الهندية المحلية مكانها مع انهم لم يجرؤوا على التصريح بالنفور من العربية ، بل اعتذروا من موقفهم ذلك بالصعوبة العملية والخضوع امام الواقع ــ اذن ما هو الواقع ؟ الواقع ان **اللغة العربية اصبحت بمثابة اليونانية واللاتينية** بالنسبة الى عامة مسلمى الهند منذ تغلب الانجليزية وسيطرتها على برامج التعليم والتربية والادارة الحكومية ، على كل حال اصبحت الاردوية جزءا من مقومات القومية لمسلمى الهند ولزت فى قرن مع الانجليزية بعد ان كانت ردفا للعربية، ثم كان الاستقلال والتقسيم وقيام دولة الباكستان على اساس دينى عاطفى فقط ، اقول «عاطفى» فقط ، لان حركة الباكستان كانت حركة جماهير الشعب بكل معنى الكلمة ، اى ان جماهير المسلمين المضطهدين هبوا يطالبون بحقهم فى العيش بحريتهم وكرامتهم فاعطى القواد والزعماء السياسيون اسم الباكستان لذلك الهدف الاجمالى ، وتم كل شيء على عجل بحيث لم يتات لاحد من المسئولين والباحثين الاختصاصيين ان يصرف عنايته الى درس السبل والمناهج المؤدية الى الغاية المنشودة ووضع مخطط شامل لاحداث ذلك التطور الذى يقتضيه فكرة « مجتمع دينى عصرى » ــ وقد نتج من عدم الاستعداد الفكرى هذا **ان تعذر الاتفاق** على دستور للدولة الناشئة ، **كذلك ارتفعت** الاصوات من الشوارع والاندية الشعبية والاحزاب السياسية مطالبة بالاسلام والاردوية بدل العلمانية والانجليزية فى دور العلم ومناهج التربية ، **وقد نسي** الجمهور وتناسى المسئولون ان **الاسلام والاردوية لن يستقيم امرهما الا بالعربية** ، بل ربما ظنوا ان اللغة العربية تقف عقبة كأداء فى سبيل تعميم الاسلام لتقوية العاطفة الدينية وتوجيهها نحو بناء الوطن الجديد ، فلذلك اعرضوا عن ذكر العربية فى صمت وعمدوا الى

جرد الفكر الاسلامى فلموا بعض جوانبه المتعلقة بالسياسة والاقتصاد والادارة المدنية والاخلاق العامة فكونوا منها فسيفساء التعاليم الاسلامية وسموها «الثقافة الاسلامية » تارة و «النظرية الاسلامية للحياة » تارة اخرى وضمنوها كمادة اجبارية للتدريس فى برامج التعليم المختلفة ، لا شك ان لجنة التعليم القومى واللجان الاخرى التى نيطت بها مهمة النظر فى التغييرات الواجب ادخالها على برامج التعليم من حين الى حين اوصت دائما بضرورة اللغة العربية للدراسات الاسلامية الاصيلة من القرآن والحديث والفقه وما اليها ، الا ان تلك التوصيات اهملت فى مرحلة التنفيذ جريا باقصر الطرق واسهلها وراء النتائج العاجلة من الحماس الدينى وتكريسه لاعراض النهضة القومية ، نعم ربما كانت الاطعمة المجففة المعباة فى العلب ايسر تناولا واوفر للوقت ، الا انه بصرف النظر عن جدوى مثل هذه الدراسات الاسلامية الرخيصة الجاهزة باللغتين الاردوية والانجليزية ، يجب علينا ان نسجل واقع **الاستغناء عن اللغة العربية كالاستغناء عن فن الطهي** وعملية الطبخ فى استعمال علب الاطعمة ـ اما بشأن الاردوية فقد دوت الارجاء بمزاعم طائلة عن ثروة اللغة الاردوية ومرونتها وصلاحيتها لتوعية جميع العلوم الحديثة بالنقل والترجمة ، بما فيها صياغة المصطلحات اللازمة ، الا ان تلك **الادعاءات اصبحت هراء وكلاما فارغا بعد انقطاع صلة الاردوية بالعربية ، لان العربية بكثرة موادها وسهولة الاشتقاق منها، هى التى تكفلت رفد الاردوية بالمصطلحات والكلمات والتعابير العلمية الدقيقة** ، تلك التى اشاد بها البيرونى منذ قرون ، اما العنصر المحلى فى اللغة الاردوية فلايجدى فتيلا لان الاردوية **انما وجدت لحاجات البيت والسوق** وليس لها عهد بتحمل اعباء العلم والفن منفردة عن سندها الكلاسيكى ووزرها الثقافى والتاريخى فى اللغتين العربية والفارسية ، ثم ان اللغات الهندية المحلية التى اخذت منها الاردوية بنصيب ليس لها من البنية وطرق الاشتقاق ما يمكنها من تأدية المعانى المختلفة بكلمات قصيرة وبتغييرات يسيرة مطردة داخل الكلمات، ولذلك نرى ان حركة الترجمة الى الاردوية سارت سيرا حثيثا مستقيما وقويا متشددا مادام مارسها رجال مثقفون ثقافة عربية ، ثم ضعفت وتعثرت لما اغتصبها بدون استحقاق احداث مثقفون ثقافة انجليزية ، والآن نشاهد عجبا من امر دعاة الاردوية الذين يجهلون العربية والفارسية ولا يدرسون غير الانجليزية ، فانهم ينادون منذ عشرين سنة بجعل الاردوية لغة رسمية فى الباكستان وبجعلها وسيلة للتعليم العالى فى الباكستان الغربية، انما جل اعتمادهم على الفرامين والاوامر الحكومية كما لو كانت المسألة مسألة سياسية بحتا بينما المكتبة الاردوية لاتزال تفتقر الى الكتب وماليها وبذلك تزداد كل يوم تأخرا عن ركب العلوم والحضارة الجديدة ، واذا عمد احدهم الى الترجمة او التأليف بالاردوية اضطر الى السطو ( بدون اجازة علمية ) على الكلمات المولدة من العربية فجاءت مشوهة محرفة عن اصلها فى النطق وفى المعنى ، وضاعت كلها على النشء الجديد الذى، بطبيعة دراسته وبيئته، معذور فى الاستيحاش من الكلمات العربية والاستئناس بالكلمات الانجليزية ؛ وسيستمر هذا الوضع بل يشتد يوما فيوما لان دعاة الاردوية هم فى الوقت نفسه دعاة تجديد الرخصة الانجليزية كلغة ثانوية اجبارية مصاحبة للاردوية تفاديا للتدهور العلمى المخوف وتسترا على الشعور الخفي بعدم كفاءة الاردوية للحاجات العصرية ، فهكذا تنبنى الدعاية للاردوية على عقد اتفاقية للدفاع المشترك والتعايش السلمى بينها وبين الانجليزية ضد العربية المهملة الساقطة من الحساب تماما .

ثم ان **دراسة اللغة العربية هى التى دعمت التقريب بين المسلمين الناطقين باللغات المحلية** المتباينة فى الاقاليم الهندية المختلفة، وهى التى خففت من حدة التعصب للغة الام ، كما انها هى التى اثرت فى اللغات الاقليمية وتاثرت بها بحيث **لم توجد الاردوية الا كنتيجة لتفاعل العربية ( والفارسية بدون شك ) مع البيئة الوطنية** وتعامل المسلمين مع ابناء البلد ، ولكن القوميين المثقفين ثقافة انجليزية انخدعوا بوجود اللغة الاردوية ومدى انتشارها فظنوا انها بذاتها ( اى مستقلة عن العربية ) تكفى للربط بين الناطقين بلغات محلية متباينة فى المناطق المختلفة ، الا انهم منوا بخيبة امل مريرة حينما اثبتت الوقائع الدامية فى الباكستان الشرقية ان **لا كرامة للاردوية بعد عقوقها العربية،** واخيرا رضخوا للضغط السياسى واعترفوا بالبنغالية كلغة رسمية لدولة الباكستان بالاضافة الى الاردوية ، وسرعان ما وجدوا انفسهم امام مشكلة اخرى هى اشبه بالمهزلة ، فان قضية الكرامة القومية ضد سيادة اللغة الانجليزية انتهت فعلا بتثبيت قواعدها كاداة وحيدة لا بديل لها للتفاهم بين الناطقين بالبنغالية فى المنطقة الشرقية والناطقين بالاردوية فى المنطقة الغربية ، وحتى فى المنطقة الغربية بدات اللغات المحلية مثل اللغة السندية واللغة الافغانية ( فشتو ) تنكر سيادة الاردوية، على كل حال انحل الرباط الثقافى بين

المناطق التي تسودها لغات مختلفة وبدات هي تسير على خطوط متوازية لا يرجى لها الالتقاء ابدا ما دامت اللغة العربية مبعدة مطروحة يجحد فضلها ويتعمد اغفالها ، والآن هم لا يجدون مخرجا من هذا المأزق الا باجبار كل ناطق بالاردوية على تعلم البنغالية والعكس بالعكس ، وتارة يتخبطون فى خلق مزيج من اللغتين البنغالية والاردوية معتمدين على الكلمات المشتركة او المتقاربة بينهما ، وتارة اخرى يحاولون استمالة اهل المنطقة الشرقية **الى اتخاذ الخط العربي للغة البنغالية وتقريبهم من الاردوية عن طريق القرآن** ( القراءة فقط بدون فهم المعنى ) فالغاية تنتهى الى الاردوية لا غير ! والعلاج الناجع لهذه المعضلة هو **اعادة الوضع التاريخي للغة العربية كاساس الدراسات الدينية والادبية ،** ولاسيما اذا كان جميع المسلمين ، مهما اختلفت لغات امهاتهم ، مستعدين لها عن رغبة وطواعية فى الحاضر كما فى الماضى ، وكانت دراسة اللغة العربية المشتركة مصدر التقارب فى الثقافة العامة واللغات الدارجة فى المناطق المختلفة ولن يزيد التقارب المنشود فى المستقبل بالنكوص عن اللغة العربية بل بالرجوع اليها، لقد كان المرحوم آغاخان بعيد النظر ، سديد الرأى وصادق العزيمة اذ تقدم فى بداية نشأة الباكستان بالنصح **لجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة الجديدة ،** وحتى اذا كان اقتراحه طوباويا ولم يكن من السياسة العملية اتخاذ العربية كلغة رسمية لبلاد مستعربة رزحت تحت نير الاستعمار الثقافى حتى فقدت روح الاستعراب وران عليها الاستغراب ، فانها اى **اللغة العربية هى اللغة الوحيدة الصالحة لان تكون لغة الدراسة المشتركة بين المنطقتين** الشرقية والغربية فى جميع مراحل التعليم كي تزاحم الانجليزية فى ذلك الوضع مزاحمة فعالة وتجنب البلاد الويلات والمشاكل، بله المهازل التى مضى الالماع اليها — نعم ! ذهب اقتراح آغا خان ادراج الرياح لان الوعي الدينى العلمى لم يوجد ، والوعي السياسى القومى يتبع التفكير الغربى فيما يتعلق بمستلزمات القومية ، ومنها اللغات المحلية، اما الدين فلا بأس بالترهات والبدع بشرط ان تمد فى الهاب الحماس للوطن .

وفى الآونة الاخيرة اجترأ بعض الدهاة على القول بان **اللغة الاردوية اغنى من حيث الادب الاسلامى من اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة التركية بمجموعها،** كبرت كلمة تخرج من افواههم فانها مؤامرة سافرة ضد العربية لم يسبق لها مثيل حتى فى ايران وتركيا فى العصر الحاضر ، انها مؤامرة استغلت فيها العاطفة الدينية، بل القومية والوطنية ، للحط من قيمة العربية ، الا ان مجرد فكرة استغلال العاطفة الدينية لصالح اللغة القومية تنم عن شعور خفي بالتلازم بين الاسلام والعربية ، وسيبقى ذلك التلازم حقيقة ملموسة وحاجة طبيعية وضرورة علمية الى الابد والله خير الماكرين .

ما من شك ان مصادر الاسلام ومراجع العلوم الاسلامية كلها بالعربية ، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، واحاديث النبى الذى اوتي جوامع الكلم هي ايضا بالعربية ، ثم ساهمت جميع الامم الاسلامية ، العربية منها والاعجمية على السواء ، فى تدوين العلوم الاسلامية من الفقه والاصول والتفسير والحديث كلها بالعربية ، كذلك نحا المسلمون كلهم ، العرب منهم والمتعربون والعجم المستعربون ، نحا كلهم نحوالبيرونى بالضبط فى نقل وتدوين جميع العلوم العقلية الدخيلة والفنون التعليمية والتطبيقية باللغة العربية مفضلين اياها على اللغات التى جبلوا عليها ، واستمر هذا الوضع الى ما قبل قرنين تقريبا اي الى ما قبل احتكاك المسلمين بالامم الغربية المستعمرة ، ثم بدات حركة لم تظهر خطورتها الا فى الآونة الاخيرة، الا وهى حركة النقل والترجمة ، فيما يخص مصادر الاسلام ومراجع العلوم الاسلامية ، من العربية الى اللغات الاعجمية ، لا ننكر ان الفرس مثلا الفوا بعض الكتب فى العلوم الاسلامية ( والدخيلة التى لا تعنينا فى سياق كلامنا هذا ) منذ القرن الرابع الهجرى ولكن الغرض منها لم يعد التيسير على المبتدئين وانصاف المتعلمين مع اشعارهم والتاكيد عليهم بحاجتهم الى العربية ، اما حركة **الترجمة فى العصر الحاضر فهى ترمى الى الاستغناء عن العربية ،** لقد تبين ذلك من اقوال اولئك الذين يجهلون العربية فيعادونها ، كما تبين ذلك من النتائج العملية فانهم سلخوا الدراسات الاسلامية وجردوها من العربية تماما حتى فى الجامعات والمعاهد العليا مما جعل الدين الحنيف مضغة فى افواه الجاهلين المتفرنجين . ومن الغريب المؤسف ان الدراسات الاسلامية فى جامعات اوربا وانجلترا وامريكا مقترنة دائما بالدراسات العربية جريا على الطريقة العلمية الخالصة ، مهما كلفهم ذلك من جهد وعناء ، بينما تلامذة الغرب القائمون على شؤون التعليم فى بلادنا يحتالون للتملص من اللغة العربية والاعتماد على التراجم والمؤلفات بالانجليزية واللغات المحلية التى لا تغنى عن

الاصول ابدا ولاسيما اذا كان المترجمون والمؤلفون انفسهم غير متقنين للغة العربية (1) .

ويجدر بنا الآن ان نقدر ما افاء على الاسلام من نفع او ضرر من جراء تراجم القرآن والحديث واصول الاسلام ، فلشيء ما لم يتكلف اسلافنا التراجم فيما مضى، كما اسلفنا القول فيه ، ولا يعدمنا الدليل على ان الترجمة كانت تعتبر تجريحا لكرامة الكتاب الذى يجب ان ينقل ويدرس بحرفه وبنصه، وكما اعجبت بالروح الاسلامية الخالصة عند اخواننا المغاربة الذين ثاروا وقتلوا اثنين مغرورين منهم اجترءا على ترجمة القرآن الى اللغة البربرية وذلك فى القرن الماضى لا ابعد منه (2)، كذلك رجت الهند رجا حينما بدات تراجم القرآن الى الفارسية تارة والى الاردوية تارة اخرى تظهر وتروج بفضل جلة العلماء من اسرة الشاه ولى الله الدهلوى منذ قرنين فقط لقد ظن اولئك العلماء الاعلام ، بحسن النية من غير شك، انهم كانوا بصنعهم ذلك يسدون حاجات دهماء الشعب الذين لم يساعفهم القدر ان يتعلموا فى المدارس ومعاهد التعليم حيث التدريس مقتصرا على العربية ، الا اننى واثق من انهم لو بعثوا من مراقدهم وشاهدوا ما يحدث اليوم من الاستغناء بالتراجم عن الاصول العربية والتخلى عن الآداب العربية تماما بدل التشويق لها عن طريق التراجم لندموا على ما فعلوا وتبرأوا مما لم يكن فى حسبانهم ، اعنى السماح للتراجم بالدخول الى المدارس ومعاهد العلم ، اذن الترجمة كالدرهم المبهرج يزاحم ويطرد الدرهم الخالص من السوق ، كما يقول علماء الاقتصاد ، وحق على المسلمين ولاسيما العرب منهم ، ان يتنبهوا الى ضرورة نشر اللغة العربية بدل ان يبذلوا جهودهم لنشر التراجم فيما بينهم ، لان المسلم لن يكتمل فهمه الصحيح للاسلام كما انه لن يتجاوب ويتفاهم مع مسلمى العالم الا عن طريق اللغة العربية — **فلنصر على ان تكون لغة القرآن من مرفقات الاسلام ولنحث المسلمين الاعاجم ان يتقدموا فى استعرابهم وذلك باستمرار تلقيح لغاتهم وآدابهم المحلية بالدراسات العربية الاسلامية** كما كان عليه الحال الى ما قبل عهد الاستعمار .

وبصرف النظر عن الدراسات العربية المقترنة بالعلوم الاسلامية ، لا مجال للتفاؤل بمستقبل الآداب العربية البحث فى البلاد الاسلامية غير العربية ايضا ، لان اللغات والآداب الكلاسيكية ، وعلى راسها الآداب العربية ، كان لها مكان محترم مرموق فى نظام التعليم الانجليزى مادام الانجليز مشرفين عليه ، فهم لم يسمحوا ابدا للغات المحلية النامية ان تزاحم اللغات القديمة الكلاسيكية فى برامج التعليم والتربية ، وليس ذلك بدعا منهم طالما هم تمسكوا بدراسة اليونانية واللاتينية فى بلادهم ، اما بعد الاستقلال فقد قفزت اللغات المحلية الى القمة بين عشية وضحاها وطفت على اللغات الكلاسيكية لان كل لغة محلية اصبحت الطفلة المدللة للقومية الهوجاء . اذن نتأكد مرة اخرى من ان **اللغة العربية لن تفلح فى البلاد الاعجمية الا اذا استندت الى الدين .**

حقا لقد طال بنا القول فى الاوضاع السائدة فى البلاد الاسلامية المستعربة ، وتلك لعمرى اوضاع خطيرة ، لعل اخواننا العرب لو وقفوا عليها لغيروا وجهة نظرهم الى اللغة العربية، **فانها اما انتكون لغة قومية للبلاد العربية تنحصر داخل حدودها** وتصعب عليها البقاء ازاء اللهجات الدارجة ، **او تكون لغة القرآن والاسلام فتصبح اللغة الاولى** بالنسبة لجميع المسلمين — العرب منهم والعجم — وتساير الاسلام الى سائر بقا عالارض . كذلك يجب على **المسلمين غير العرب ان يخلصوا ولاءهم للغة القرآن** وذلك بالتخلى عن فكرة تمجيد اللغات القومية والمحلية **واتخاذ خطوات ايجابية لاعطاء اللغة العربية الاسبقية والافضلية** فى برامج التعليم وتقوية ربط اللغات المحلية بها ، والاحتفاظ بكرامة القرآن العربى بمنع دخول ترجمته الى معاهد التعليم العالى وحظر دراسة العلوم الاسلامية الا باللغة العربية . واخيرا يجب التحذير من الاغلوطة الشائعة ان وطاة اللغات القومية والمحلية انما تقع على الانجليزية ، كلا بل ان وطاتها تقع فى المرتبة الاولى على لغة القرآن والعلوم الاسلامية كما ان وطاة اللهجات الدارجة انما تقع على العربية الفصحى ، لا على الانجليزية او الفرنسية ، فى البلاد العربية .

---

(1) لقد اتفق للدكتورة بنت الشاطىء الالتقاءبالهند ببعض هؤلاء المترجمين والمفسرين للقرآن من غير ان يعرفوا اللغة العربية فثارت ثائرتها لحمايةالكتاب « من عبث المترجمين وخطأ الشراح وعدوان المقتبسين » — انظر مقالها فى الاهرام 2—3—1964.

(2) انظر عثمان الكعاك : البربر ، تونس 1956، ص 116 .. كذلك تاريخ الاندلس مليء بالتشاحن والتطاحن بين العرب والبربر الا ان بربرياواحدا لم يفكر ابدا فى تمجيد اللغة البربرية ضد العربية !!